دور رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك في دعم مؤسسة العرش الإنكليزي أَثْنَاء تمرد عام ١٠٨٨

الباحث: احمد جمعة ظاهر **ا.د. حسنين عبد الكاظم عجه**
جامعة واسط-كلية التربية للعلوم الإنسانية
Ahmed Gomaa Zahir Prof. Dr Hassanein A, Ajjh
College of Education/ Wasit University
Ahmdalwasty29@qmail.com hajja@uowasit.edu.iq

ملخص البحث :
تتطرق الدراسة الى تمرد الكونت اودو عم الملك وليام الأحمر على العرش الإنكليزي، بدءاً بأسباب التمرد ودوافع أطرافه مروراً بوقائع التمرد وتطوراتها، وانتهاء بنتائج ذلك التمرد على مؤسسة العرش الإنكليزي والمتمردين الشعب الإنكليز الذي كان له دوراً محورياً في دعم الملك وليام الأحمر إبان التمرد، وتركز الدراسة في جميع المحاور والانتقالات الى دور رئيس أساقفة كانتربري الهام في دعم الملك وليام ازاء المتمردين والجهود التي بذلها رئيس أساقفة كانتربري لكسب الرأي العام الإنكليزي لصالح العرش الإنكليزي، وانعكاسات ذلك على التمرد.

كلمات مفتاحية: الكونت اودو، رئيس اساقفة كانتربري، وليام الأحمر، التمرد، الدوق روبرت.

Abstract
This study deals with the rebellion of Count Odo, uncle of King William the Red, against the English throne, starting with the causes of the rebellion and the motives of its parties, passing through the facts and developments of the rebellion, and ending with the results of that rebellion against the institution of the English throne and the rebels, as well as the English people, who had a pivotal

ملابسات تسنم وليام روفوس عرش إنگلترا:

شَكَّلَتْ وصية وليام الفاتح أَثْنَاء احتضاره منعطفاً خطيراً في تاريخ إنگلترا ونورماندي، لخطورة الاجراءات التي أمر بها وترتب عليها تقسيم ممتلكاته بين ولديه الأكبر والأوسط، وارساء اسس سجالات سِيَاسِيَّة وعسكرية بينها، فقد أمر وليام بمنح ابنه البكر روبرت كورتيز (Robert Curthose) مقاطعة نورماندي نزولاً عند رغبة نبلائها وتقاليدهم التي درجوا عليها بتسنم الابن البكر زمام الحكم بعد وفاة ابيه[١]، أما مملكة إنگلترا فقد اوصى وليام الفاتح بتسنم ابنه الاوسط وليام روفوس (William Rufus) عرشها، واكتفى بمنح ابنه الاصغر هنري خمسة الاف باون[٢]، وهي خطوة نمت عن قصر نظر المَلِكْ المحتضر، ذَلِكَ انها زجت ابنائه في خلافات استنزفت مواردهم البشرية والاِقْتِصَادِيَّة، وبقدر تعلق الأمر بدراستنا فإن الظروف التي احاطت بالمَلِكْ وليام الفاتح أَثْنَاء احتضاره، وبعده عن مملكته دَفَّعَتهُ للاعتماد على رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك في تسهيل تسنم ابنه وليام روفوس العرش الإنگليزي، واحتواء الاصوات المعارضة له، وَضَمَّنَ المَلِكْ المحتضر رغبته في خطاب سلمه إلى أسقف لنكولن روبرت بلويوت (Robert Blouet)، طالباً منه تسليمه إلى رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك[٣]، حينها اسرع وليام روفوس لعبور بحر المانش ومقابلة لانفرانك[٤]، وترتيب اجراءات تسنمه عرش إنگلترا، وفور لقاء وليام روفوس رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك اخبره بوفاة المَلِكْ وليام الفاتح، وسلم أسقف لنكولن خطاب المَلِكْ الراحل وليام الفاتح إلى رئيس أساقفة كانتربري، الذي ما أن قرأ هذا الخطاب حتى ادرك أَنَّهُ في موقفٍ دقيق، خلاصته أن مستقبل إنگلترا أصبحَ رهناً به، وبدعمه لـ وليام روفوس[٥]، وهو مؤشر خطير دل على أن نفوذ رئيس أساقفة كانتربري أصبحَ من الخطورة بمكان بحيث أن مصير مؤسسة العرش الإنگليزي غدا

the efforts made by the Archbishop of Canterbury to win English public opinion in favor of the English throne, and the repercussions of all of that on the rebellion.

role in supporting King William Red during the rebellion, and this study focuses in all these axes and transitions to the important role of the Archbishop of Canterbury in supporting King William against the rebels and

مرتبطاً به، وانتقال عرش إنگلترا مقترناً بإرادته، وإجراءاته لترتيب خطوات التداول السلمي لعرش إنگلترا[٦]، وزَادَ الأمرَ صعوبة ادراك رئيس الأساقفة أن داعمه الرئيس ورفيق دربه وليام الفاتح أصبحَ من الماضي، ومِنْ ثَمَّ فإنه أمام مسؤوليات وتحديات اقتضت منه توظيف طاقته وإمكاناته كافة للسير بإنگلترا إلى بر الأمان[٧]، ولا رَيْبَ أن العلاقة الوطيدة التي ربطت رئيس الأساقفة بـ وليام روفوس كَانَتْ دافعاً مضافاً لدعم رئيس الأساقفة لـ وليام روفوس، لاسيما أن الأخير كَانَ على تماس مباشر به، وتعلم الكثير على يديه[٨]، بل أن لانفرانك اشرف على مراسيم ترسيم وليام روفوس فارساً، ومنحه حزام الفروسية، وهي أمور بمُجْمَلِها انتهت إلى تحمس رئيس الأساقفة لانفرانك لدعم تسنم وليام روفوس عرش إنگلترا بشتى السبل[٩].

باشر لانفرانك إجراءات تسنم وليام روفوس العرش، وكَانَ مدركاً أن مباركة المَلِكْ الراحل لتسنم ابنه العرش لا يعد كافياً، لأن التقاليد الإنگليزية درجت على اختيار مجلس المَلِكْ الكبير عاهلهم المقبل، لذا اجتمع رئيس الأساقفة لانفرانك بمجلس المَلِكْ الكبير وبَيَّنَ لهم رغبة ملكهم الراحل في تسنم ابنه وليام روفوس عرش بلادهم، والمسؤولية التي القاها على عاتقه بِوَصْفِهِ رئيساً لأساقفة كانتربري[١٠]، وشدد لانفرانك على دعمه المطلق لتسنم وليام روفوس، وعدم سماحه لأي معارضة لتلك الارادة المَلَكية ـ الكنسية، ونَجَحَ رئيس الأساقفة في الحصول على موافقة المجلس ومباركته لتسنم وليام روفوس العرش[١١]، وهي سابقة دلت على مدى النفوذ الذي حصل عليه رئيس أساقفة كانتربري بحيث أصبحَ لهُ القول الفصل في اختيار العاهل المقبل لإنگلترا، وبذلك أصبحَ الطريق ممهداً امام وليام روفوس بفضل دعم لانفرانك وتصديه للاصوات المعارضة له، واللَّافِت أن اولى اجراءات وليام روفوس التي سبقت تتويجه تمثلت بإطلاقه سراح بعض النبلاء المعتقلين تَنْفِيذاً لوصية والده[١٢]، فأطلق سراح ايرل نورثمبريا السابق موركار بن ايلفجار، وولفنوث (Wolfenoth) الاخ الاصغر للملك هارولد[١٣]، ودنكان (Duncan) اكبر ابناء عاهل اسكتلندا مالكولم الثالث[١٤]، وفي إطار تَنْفِيذِ وصايا والده ذهب وليام روفوس إلى ونشستر حيث خزائن والده التي ضمت اموال وكنوز ومقتنيات جمعها وليام الفاتح أَثْنَاء سني حكمه لإنگلترا، وباشر وليام روفوس بتوزيعها لراحة روح ابيه الراحل، فكَانَت حصة كُلّ وزير ستة قطع من الذهب، وحصل المسؤولون الأقل شأناً منهم على ستين بنساً، وأرسل وليام مائة باون إلى كُلِ مقاطعة في المملكة لتوزيعها على الفقراء[١٥].

لم يتَأَخَّرْ التكريس الرسمي لـ وليام روفوس، فقد توجه رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك في ٢٦ ايلول ١٠٨٧ الذي صادف مناسبة دينية هي عيد القديسين كوزماس وداميان(١٦)، ويبدو أن لانفرانك الزم المَلِكْ وليام روفوس بإداء قَسَمْ حدَّ كثيراً من سلطته المَلَكيةَ، فقد تعهد المَلِكْ الشاب بموجب قسم تتويجه بمراعاة ثَّوابِتِ النظام الذي ارساه والده في إنكلترا، وضمان حريات شعبه، فَضْلاً عَنْ صيانة حقوق الكنيسة الإنكليزية(١٧)، والأخطر مما سبق أن المَلِكْ وليام وعد رئيس أساقفة كانتربري وليام باتباع مشورته في جميع القرارات المَلَكيةَ الهامة، وهو مؤشر لافت على استحواذ رئيس الكنيسة الإنكليزية على مؤسسة العرش الإنكليزي، وانعطاف غاير تماماً معادلة العلاقة بين المؤسستين الدينية والزمنية في عهد المَلِكْ الراحل(١٨)، ولا رَيْبَ أن العاهل الجديد كَانَ مضطراً لمجاراة لانفرانك حرصاً على استكمال اجراءات تسنمه العرش، دون أن يكون جاداً في تَنْفِيذِها، ولا رَيْبَ أن وقع تلك الوعود كَانَ كبيراً على النبلاء الزمنيين والدينيين الحاضرين، حتى أنهم اظهروا بهجةً وتحمساً وهم ينحنون امام عاهلهم الجديد ويقسمون يمين الولاء بين يديه(١٩).

بواكير تمرد الكونت اودو:

توجه المَلِكْ وليام روفوس إلى وستمنستر، وقضى عيد ميلاد ذَلِكَ العام ١٠٨٧ في اجتماعات مع نبلاء مملكته وأساقفتها، ومنهم عمه الكونت اودو أسقف بايوكس الذي أُطْلِقَ سراحهُ نزولاً عند وصيةِ المَلِكْ المحتضر(٢٠)، واللَّافِت أن الكونت اودو اراد استرجاع نفوذه السابق من خلال الاستحواذ على المَلِكْ الجديد(٢١)، ومع أن الكونت اودو تصدر اجتماعات المَلِكْ لَكِنَّهُ ادرك صعوبة السيطرة على المَلِكْ وليام روفوس شديد المراس(٢٢)، لاسيما حين اتخذ المَلِكْ وليام روفوس أسقف دورهام وليام كيرلاف (William Carilif) مستشاراً له، مفضلاً اياه على باقي النبلاء ومنهم عمه الكونت اودو(٢٣)، ومما زَادَ الأمرَ سوءاً الحقد الشديد الذي كنه الكونت اودو لرئيس أساقفة كانتربري لانفرانك لدوره الحاسم في تشجيع المَلِكْ الراحل على تجريد الكونت اودو من مناصبه وزجه في السجن لأكثر من خمس سنوات(٢٤)، تزامناً مع نفوذ كبير حازه رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك في بلاط المَلِكينْ وليام الفاتح وابنه وليام روفوس على التوالي(٢٥)، لذا باشر الكونت اودو منذ اذار ١٠٨٨ بتَنْفِيذِ مخطط سري ضد المَلِكْ وليام روفوس، منتهزاً فرصة عدم وجود كارتل قوي يؤيده، فأعضاء مجلس المَلِكْ الكبير وسواهم من النبلاء والأساقفة النورمان لم يكن لهم دوراً في اختياره، الذي كَانَ عبارة عن اتفاق

بين ملك ميت هو وليام الفاتح وأسقف حي هو لانفرانك، وهو ما ركز عليه الكونت اودو في تأليب النبلاء على عاهلهم الجديد[٢٦]، مؤكداً لهم في لقاءات سرية متعددة أن مصالحهم تقتضي تسنم دوق نورماندي روبرت كورتيز الضعيف عرش إنكلترا[٢٧]، وسرعان ما نسج دوق نورماندي روبرت مع عمه الكونت اودو خيوط مؤامرة كبرى ضد المَلِكْ وليام روفوس[٢٨]، بالاشتراك مع أغْلَبِ النبلاء النورمان[٢٩]، الذين أقنعهم الكونت اودو أن هناك معطيات كثيرة تدعوهم للطعن في شرعيته والخروج عليه، في مقدمتها أن نظام الحكم في نورماندي يتبَنَّى مبدأ البكورة في تسنم الحكم[٣٠]، على عكس النظام شبه الانتخابي السائد في إنكلترا الذي اقره وليام الفاتح لحاجته إلى دعم مجلس الوايتان، ليظهر التزامه بالتقاليد الإنكليزية القديمة، ويضفي الشرعية على حكمه[٣١]، وهو ما انتفت الحاجة إلَيْهِ بعد تثبيت أركان الحكم النورماندي في إنكلترا[٣٢]، بالشكل الذي يجعل روبرت وريثاً أوحداً لعرش ابيه[٣٣]، لاسيما أن اختيار وليام روفوس لعرش إنكلترا لم يستند إلى معايير صحيحة[٣٤]، ولفت الأسقف اودو ببراعة شديدة انتباه أقرانه النورمان إلى أن اقطاعاتهم التي تقع على جانبي المانش تقتضي وجود سيد واحد لإنكلترا ونورماندي للحفاظ عليها[٣٥]، وإلا كَانَت عرضة لمفاجأت أهونها ضياع شطر منها عند نشوب صراع بين حاكمي إنكلترا ونورماندي[٣٦]، وأن الاختيار الذي لا مناص عنه لتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ توحيد إنكلترا ونورماندي مجدداً تحت حكم الدوق روبرت الذي يمكن الاستحواذ عليه بصورة أو بأُخْرَى[٣٧]، والذي وعدهم بدعم عسكري ولوجستي في حال تمردهم على عاهلهم وليام الاحمر، وبامتيازات لا حد لها عند تسنمه العرش[٣٨].

ويبدو أن الكونت اودو حَرَّصَ على ادامة زخم اجتماعاته برؤوس المتأمرين لايصالهم إلى قناعة مطلقة بضرورة التخلص من عاهلهم لضمان ولائهم التام لمخطط الكونت اودو، بِوَصْفِهِ عرابهم الأوحد في التصدي للملك وليام روفوس، وفي إحْدَى الاجتماعات اتجه الكونت اودو وحلفائه إلى مكان منعزل على الساحل الإنكليزي المطل على المانش، وهناك شدد الكونت على أنهم يستندون في معارضة المَلِكْ وليام روفوس إلى ثَّوَابِتْ قانونية وشرعية بوصفهِم مؤيدين لتسنم الدوق روبرت كورتيز العرش الإنكليزي كونه الخليفة الشرعي لوالده على عرش إنكلترا ودست حكم نورماندي[٣٩]، ولا بد من التحرك لتَحْقِيقِ هذا الهدف سواء بقتل المَلِكْ وليام أو تسليمه حياً لأخيه، وإلا خسر النبلاء النورمان كُلّ ما حققوه وحازوه في إنكلترا بعد الفتح النورماندي لها[٤٠].

الفعاليات العسكرية للمتمردين

باشر الكونت اودو والبارونات المتأمرين عصياناً على المَلِكْ منذ ايار ١٠٨٨ في مناطق متفرقة في إنگلترا، بدءاً بايرلية كنت وساكس، مروراً بمناطق غرب المملكة وشمالها، ثم العاصمة لندن بنفسها، بالشكل الذي يمكننا من القول أن أغْلَبْ انحاء إنگلترا شهدت انفلاتاً امنياً وعصياناً من لدن المتمردين وانصارهم، الذين سرعان ما سيطروا على ابرز مدن إنگلترا ومنها بريستول، سومرست، جلوسيستر، ويلتشاير، أفون، باث، إلتشيستر، بيركلي، هيرفورد، روتشستر[٤١]، ولم تنجو مدينة وورستر منهم إلا بفضل أسقفها الإنگليزي ولفستان الذي نَجَحَ في قيادة مواطنيه وطرد المتمردين منها، بَيْدَ أنَّ المعاقل العظيمة للمتمردين تركزت في جنوب شرق إنگلترا حيث معاقل الكونت اودو فَضْلاً عَنْ قرب تلك المناطق من السواحل المقابلة لدوقية نورماندي للحصول على الدعم المتوقع من دوقها روبرت كورتيز، ولذا تركز المتمردون في ثلاث معاقل ساحلية هي روتشستر وتونبريدج وبيفينسي[٤٢]، ولا رَيْبَ أن ما تقدم اِنعَكَسَ سلباً على المَلِكْ وليام روفوس الذي أصبحَ في وضع دقيق لاسيما بعد أن تنصل عنه كثير من مقربيه، ومنهم مستشاره المقرب أسقف دورهام وليام كيرلاف الذي تخلى عنه، وغادر لندن إلى مقر أسقفيته في دورهام، في حين تبَنَّى باقي النبلاء والاكليروس النورمان موقف التعاطف والتعاون مع المتأمرين أو المتفرج في أفضل الأحوال[٤٣]، وهنا من المناسب القول أن تورط بعض أساقفة الكنيسة الإنگليزية في المؤامرة ضد مؤسسة العرش بدرجات متفاوتة لم يؤثر على دعم الكنيسة لعاهل إنگلترا وليام الأحمر في ظل الدعم التام الذي اظهره رئيس أساقفة كانتربري ورأس الكنيسة الإنگليزية لمؤسسة العرش[٤٤]، بَيْدَ أنَّ ما تقدم اثار حفيظة لانفرانك بسبب تورط بعض أساقفته في شُؤُونِ سِيَاسِيَّة دنيوية، ووقوفهم ضد عاهلهم الشرعي رغم الدعم الكنسي له، فأودو أسقف بايوكس ووليام أسقف دورهام، رمزان اكليروسيان أَدَّى وقوفهما ضد وليام الأحمر إلى تفكير رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك بضرورة تطهير الكنيسة من مزيد من رجالاتها غير الجديرين بمناصبهم[٤٥]، وزَادَ الوضع سوءاً بعد انضمام جيوفري أسقف كويتناكس (Geoffrey of Coutances)، الذي كَانَ محارباً محترفاً في أمور التعبئة والتدريب العسكريين[٤٦]، واللَّافِت أن رجال الدين المتأمرين اعلنوا عدائهم لعاهلهم ورئيس أساقفتهم على حدٍ سواء، في إشارة إلى أبعاد مخططهم الذي ركز على تغييرات سِيَاسِيَّة – دينية متزامنة[٤٧].

جهود وليام روفوس للقضاء على التمرد

ادرك المَلِكْ وليام روفوس أن التمرد تغلغل في أوساط كنسية وزمنية نورماندية، ولم يبق معه سوى قلة ممن ثبتوا على ولائهم له، منهم رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك الذي لولا دعمه للعرش لأصبحَت المعادلة أشد صعوبة عليه[٤٨]، وكَانَ مكمن الخطورة فيما حدث أَنَّهُ قسم العائلات النورماندية النبيلة على نفسها، فكَانَ بعض افراد الاسرة في صف المَلِكْ والبقية في صفوف المتأمرين[٤٩]، ولا رَيْبَ أن ما تقدم وضع الأخير في موقف لا يحسد عليه، مما دعاه إلى محاولة استقطاب كُلّ ما تيسر لهُ من طاقات وإمكانات للتصدي لمؤامرة الكونت اودو ورفاقه[٥٠]، فوجد نفسه إزاء قوتين هائلتين بإمكانهما تغيير معادلة الصراع لصالح مؤسسة العرش الإنكليزي، اولهما رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك الذي اِمتَلَكَ نفوذاً دينياً جعله المحرك الأبرز للكنيسة الإنكليزية بثقلها الروحي والمادي، فَضْلاً عَنْ الإنكليز الذي همشهم الملوك النورمان منذ فتح إنكلترا، والحقيقة أن رهان المَلِكْ على هاتين القوتين كَانَ بارعاً، فالشعب والكنيسة اِمتَلَكَا قوة لا قِبَلَ للمتمردين بهما[٥١]، ومن المؤشرات التي انتبه إليها المَلِكْ أن رئيس أساقفة كانتربري نَجَحَ في ابعاد أساقفة كنيسته عن التعاون مع المتمردين فيما عدا ثلاثة هم أساقفة بايوكس وكوتانس ودورهام، ومِنْ ثَمَّ فإن المَلِكْ وليام روفوس ادرك أن رئيس أساقفة كانتربري اِمتَلَكَ المؤهلات التي تَدَفَّعَهُ لنصرة عاهله الشرعي على النبلاء المتمردين، وهو ما فعله المَلِكْ حين طلب دعم رئيس أساقفته ضد من راموا النيل من عرشه[٥٢]، ولما كَانَ رئيس أساقفة كانتربري بدوره موتوراً من المتمردين وزعيمهم اودو عدوه اللدود، وداعماً للملك وليام روفوس منذ البداية، وحريصاً على عدم الزج بإنكلترا وكنيستها في خضم فوضى كـ تلك التي اعقبت الفتح النورماندي، لذا قَرَّرَ رئيس الأساقفة توظيف طاقات كنيسته كافة لدعم مؤسسة العرش الإنكليزي[٥٣]، أما الشعب الإنكليزي فقَرَّرَ المَلِكْ وليام الأحمر بالتوافق مع رئيس أساقفته استقطابه من خلال سياسة الترغيب والترهيب، لذا أعلن المَلِكْ وليام في مرسوم ملكي باللغة الإنكليزية القديمة أَنَّهُ في حال دَعْم الإنكليز لهُ ضد النبلاء النورمان المتمردين، فإنه سيقضي على اولئك النبلاء، وسينهي المظالم التي اقترفوها بحق الإنكليز، وسيعيد للإنكليز على اِخْتِلافِ طبقاتهم جميع الامتيازات التي فقدوها، لاسيما نبلائهم الذين فقدوا اقطاعاتهم وممتلكاتهم، فَضْلاً عَنْ موظفيهم وجنودهم[٥٤]، وسيعيد العمل بالقوانين السابقة لملوكهم، وفي مقدمتها قوانين ادوارد المعترف، ويوقف المظالم التي حدثت ضدهم إبان حكم والده، ويوزع ما في خزائن والده الممتلئة عليهم[٥٥]، وسيرفع المنع الذي فرضه والده وليام الفاتح بمنعهم

من الصيد في الغابة المَلَكيةَ، بل أَنَّهُ شدد على أَنَّهُ سيجعل الإنكليز اصحاب النفوذ دون قومه النورمان، ومما لهُ مغزى أن المَلِكْ وليام نعت نفسه في هذا المرسوم بـ "**ملك الإنكليز**"، وفي الوقت ذاته هدد بأنه سينعت من لا يدعمه من الإنكليز بـ (No thing) أي لا شيء عليه، في إشارة إلى أن من لا يساند العرش الإنكليزي سيحرم من أي امتياز ملكي، ومما أَضافَ زَخَماً إلى هذه الدعاية المَلَكيةَ، الجهد الكبير الذي بذله رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك، بتوظيف نفوذه الديني ونفوذ أساقفته لاستقطاب الرأي العام لصالح دعم عاهل إنكلترا وليام الأحمر[٥٦]، وهنا لا بد من التنبيه إلى أن ما تقدم لاقى صدىً لدى الإنكليز الذين كَانَوا حانقين على النورمان لاحتلالهم مملكتهم واغتصاب اراضيهم وممتلكاتهم، وتحويلهم من شعب مستقل إلى تابع ذليل للنورمان، فكَانَت هذه فرصة الإنكليز الثمينة لسحق النورمان، واسترجاع ما فقدوه مُذ ولج النورمان ديارهم، كما أن الإنكليز وثقوا بعاهلهم وليام الأحمر كونه لم يشارك في المظالم السابقة ضدهم، وصدر نفسه كملك الإنكليز لا النورمان[٥٧]، ولذلك عبأ الشعب الإنكليزي نفسه لدعم المَلِكْ وليام الأحمر، وانهاء الحكم النورماني لبلادهم، مما هيأ للأخير المستلزمات الكافية للانقضاض على نبلاءه المتمردين(٥٨)، وكَانَت لمدينة لندن قصب السبق في فرض السيادة المَلَكيةَ، وبعد استتباب الأمن فيها، انطلق المَلِكْ بجيشه الجرار من نورمان موالين للملك، وأغلبية من الإنكليز، ليبدو جيش المَلِكْ تجمعاً كبيراً للشعب ناهز الثلاثين الفاً، برفقة القوات المَلَكية النظامية، وتؤكد المصادر أن ولاء الإنكليز لعاهلهم وحماستهم دَفَّعَتهم لحثهِ على ضرب المتمردين بيدٍ من حديد واستئصالهم من جزيرتهِ تماماً، بهذه الروحية والاندفاع اِمتَلَكَ المَلِكْ وليام جيشاً عقائدياً عصف بمدن التمرد واحدةً تلو الأخرى[٥٩].

توجه المَلِكْ وليام بجيشه نحو كنت وجنوب ساكس، ومع أن رأس التمرد مُمَثَلاً بالكونت اودو تمركز في مدينة روتشستر، وكَانَ الهدف الأبرز للإنكليز لمظالمه التي اقترفها ضدهم بصورة لم يضاهيه فيها أَحَد من النورمان[٦٠]، بَيْدَ أَنَّ المَلِكْ ادرك ضرورة انهاء بؤر التمرد واذرعه في كنت وجنوب ساكس، قبل التوجه إلى معقله الرئيس حيث يتركز الكونت اودو، وكَانَت تونبريدج وجهة المَلِكْ، وبعد صدام بسيط على اطرافها اعتقل المَلِكْ وليام الأسقف جيلبرت، وحاصر قلعتها يومين ثم اقتحمها[٦١]، ثم اتجه بعدها نحو روتشستر لملاقاة عمه اودو، لكن أخبار وصلت المَلِكْ أَثْنَاء مسيره مفادها أن الكونت اودو واتباعه غادروا روتشستر إلى بيفنسي، ليكونوا على سواحل جنوب غرب إنكلترا، علهم يحصلون على مدد من كونت

نورماندي روبرت كورتيز الذي وعدهم بالقدوم إلى إنگلترا على رأس اسطول كبير، لإسقاط اخيه وليام وتسنم عرش إنگلترا مكَانَه، حينها ادرك المَلِكْ خطورة دخول طرف خارجي على معادلة التمرد التي باشرها اودو، لذا أوقف المَلِكْ زحف قواته نحو روتشستر، وتوجه نحو بيفنسي لإحباط التَدَّخُلْ الخارجي النورماندي[٦٢].

وقائع حصار بيفنسي، ونتائجه

أثبت الفعاليات القتالية في بيفينسي أَنَّهُ عمل أصعب بكثير من حصار تونبريدج، لحصانة اسوار قلعة روتشستر والدفاعات النورماندية الجديدة المسندة بجدار روماني قديم، وارتفاع الروح المعنوية لحاميتها، لوجود الكونت اودو بَيْنَهُمْ، وانتظارهم المدد النورماندي الذي وعدهم به الدوق روبرت كورتيز، لذا اِضْطَرَّ المَلِكْ وليام إلى تعبئة قواته واسلحته حول قلعة روتشستر، وباشر بدك حصونها، بَيْدَ أَنَّها صمدت ستة اسابيع[٦٣]، وأَثْنَاء الحصار حصل ما توقعه الجميع، فقد وَصَّلَ اسطول نورماندي على مشارف ساحل بيفنسي، لكن عاهل إنگلترا وقواته كَانَوا بالمرصاد، فقد رابط اسطول إنگلترا على شؤاطئ بيفنسي، وقوات المَلِكْ وليام على ساحلها[٦٤]، فإسقط في يد الاسطول النورماندي، الذي نزلت بعض قواته على الساحل، فتلقفها الإنگليز قتلاً وأسراً، متجاهلين رميهم برشقات سهام المتمردين من جدار القلعة، فيما تجهز اسطول إنگلترا للصدام بنظيره النورماندي، ومع أن بعض السفن النورماندية التي وصلت الساحل حاولت الانسحاب لكن الرياح منعتها، فرمى بحارتها انفسهم في مياه البحر تجنباً لوقوعهم بيد الإنگليز، وهكذا قضى اولئك البحارة غرقاً[٦٥]، كُلّ ذَلِكَ كَانَ على مرأى ومسمع من الدوق روبرت الذي تجرع مرارة مقتل اتباعه بطرق شتى، دون أن يتمكن من تقديم المساعدة إليهم، حينها ادرك دوق نورماندي فشل حملته، فقفل راجعاً بما تبقى من اسطوله، تاركاً المتمردين وكونتهم اودو يلاقون مصيرهم المحتوم[٦٦]، ولا رَيْبَ أن ما تقدم كَانَ لهُ وَقْعْ الصاعقة على الكونت اودو لاسيما أن مؤنه داخل قلعة روتشستر بدأت بالنفاد، فأسقط في يد الكونت اودو وزعماء المتمردين، لإدراكهم أَنَّهُ لا محيص عن استسلامهم لقوات المَلِكْ وليام، بعد فشل تدابيرهم العسكرية داخلياً وخارجياً[٦٧].

راهن الكونت اودو على استسلام مشروط مقابل استسلامه لملك إنگلترا، تراعي قرابته للملك، وصفته الدينية بِوَصْفِهِ أسقفاً، والسياسية كونه زعيم المتمردين[٦٨]، وهنا تبَنَّى الكونت خطوة جريئة تمثلت بخروجه من القلعة وذهابه إلى المَلِكْ، وأَثْنَاء مقابلتهما أقسم الكونت على مغادرتِهِ إنگلترا وعدم عودتِهِ إليها إلا إذا طَلَّبَ منهُ المَلِكْ ذلك،

وتنظيمه اجراءات استسلام القلعة[٦٩]، واستناداً لما تمخض عنه اللقاء عاد الكونت اودو إلى القلعة بصحبة قوة صغيرة من جيش المَلِكْ، وحين وصلوا بوابة القلعة طالبهم الكونت بالاستسلام لكنهم اعتقدوا أَنَّهُ مجبر على ذلك، لاسيما بعد أن طالعوا الحزن في وجهه، لذلك ارتكبت حامية القلعة حماقة كبيرة حين خرج بعض عناصرها من الباب، واعتقلوا قوات المَلِكْ التي رافقت الكونت اودو[٧٠]، ما حدا بالمَلِكْ الذي شاهد ما حصل للشعور بالمرارة لخديعته من شخص من دمه، وفي مرتبة كنسية عالية، فأعلن المَلِكْ وليام الغاء الاتفاق السابق، وتهيأ لاقتحام القلعة تزامناً مع اشتعال حماسة حامية القلعة وتهيؤهم لقتال قوات المَلِكْ، واللَّافِت أن المَلِكْ أرسل مبعوثيه في عموم مملكته لحث رعاياه على القدوم إلى القلعة واستخلاصها من المتمردين، مشدداً على مبعوثيه بتذكير رعاياه الإنكليز باعلانه السابق، واعداً مناصريه بميزات كثيرة، ومتوعداً سواهم بألقاب مخزية وعقوبات كثيرة، وكَانَ لانفرانك مجدداً داعماً لهذا التوجه، ومستخدماً نفوذ كنائسه في عموم إنكلترا لتلبية دعوة عاهلهم الشاب[٧١]، فتهافت الالاف في شهر حزيران ١٠٨٨، تزامناً مع مباشرة قوات المَلِكْ بناء برجين خشبيين كبيرين لإتمام حصار القلعة، وتمكن المَلِكْ أَثْنَاء عمليات الحصار من اتمام سيطرته على سواحل بيفنسي وتانبريدج لإنهاء اخر امال المُحاصرين بالخلاص منه[٧٢]، لاسيما بعد قطع طرق الامدادات المحتملة من دورهام وبريستول وسواها من بؤر التمرد في شمال إنكلترا ووسطها، ومما زَادَ المتمردين ضعفاً أن كبار اقطاعيي الرومان وملاك الاراضي بضمنهم نبلاء مقاطعة كنت التزموا جانب العرش لارتباط مصالحهم به، فنفدت مؤن المتمردين وانتشر بَيْنَهُمْ وباء زَادَ محنتهم[٧٣]، فاضْطَرَّ الكونت اودو وكبار قادة التمرد لإعلان رغبتهم باستسلام مشروط للملك يضمن امتيازاتهم والقابهم واقطاعاتهم، مقابل اخلاء قلعة روتشستر وإعلان ولائهم له، فشعر المَلِكْ بالغضب هذه المرة، وأقسم بروح والده أَنَّهُ لن يقدم مجدداً أي امتيازات لأودوا ورفاقه، ولا بديل لهم عن استسلام مذل، يحاسبوا على أثره ويعلقوا على مشابك داخل جدران القلعة التي استخدموها ضد عاهلهم الشرعي[٧٤]، بَيْدَ أَنَّ نبلاؤه النورمان وبعض رعاياه الإنكليز طلبوا منه الرحمة بِوَصْفِهِ سليلاً لملوك إنكلترا العظام، لكن المَلِكْ خطب في تلك الجموع قائلاً : "**أن الرحمة احياناً تبعد الإنسان عن العدالة التي لا بد منها مهما كَانَت قاسية**"، لكن اتباعه اوردوا لملكهم ذرائع للتعامل مع المتمردين واودو برحمة بِوَصْفِهِ عم المَلِكْ، ورفيق ابيه في فتوحاته، كما أن صفته الدينية تمنحه حصانة تؤخذ

بنظر الإعتبار[٧٥]، ويبدو أن المَلِكْ استكانَ لتلك الضغوط، فوافق على استسلام اودو ورفاقه دون شروط، على أن تُسْحَبْ منهم اراضيهم وامتيازاتهم كافة[٧٦]، واعلن اعادة اودو إلى ابرشيته في نورماندي، والعفو عن يوستاس وروبرت من بيلمي لعلاقتهما الوطيدة بوليام الفاتح[٧٧]، والسماح لحامية القلعة بالخروج بأمان بخيولهم واسلحتهم ودروعهم على أن يغادروا إنكلترا، ولا يعودوا إليها طوال عهده[٧٨]، ومع أن الكونت اودو خضع لهذه الشروط وأعلن استسلامه في ١١ أيلول ١٠٨٨[٧٩]، بَيْدَ أَنَّهُ طلب من المَلِكْ منع اتباعه من النظر إِلَيْهِ بازدراء واسماعه ورفاقه كلمات مذلة، فرفض المَلِكْ، واِضْطَرَّ عمه اودو لـ "**شرب كأس الاذلال حتى الثمالة**"[٨٠]، على حد تعبير أَحَد المصادر الإنكليزية، لاسيما بعد أن دوت ابواق النصر أَثْنَاء خروج اودو ورفاقه من القلعة، وصرخ الإنكليز بصوت واحد مرعب : "**أحضروا الحبال وعلقوا الأسقف الخائن والمتواطئين معه على المشانق**"[٨١]، وهكذا اِنتهى خطر العدو اللدود لمؤسسة عرش إنكلترا وكنيسة كانتربري إلى الأبد، وبعد وئد رأس التمرد في جنوب إنجلترا، تم سحق بؤره في ورسيستر، بريستول وسواهما[٨٢].

الخاتمة

- أدى لانفرانك دوراً محورياً في تسنم وليام روفوس عرش إنكلترا، ليثبت أن نفوذه السياسي وصل حد التحكم في من يرث عرش إنكلترا من أولاد الفاتحبذل لانفرانك جهداً لافتاً في دعم الملك وليام روفوس، وتذليل الصعوبات التي واجهته مطلع حكمه.
- أثبت لانفرانك قدرته في استقطاب الشعب الإنكليزي لوئد التمرد الذي قام به النورمان ضد مؤسسة العرش الإنكليزيكان لـ لانفرانك دوراً رئيساً في محاكمة زعماء المتمردين بضمنهم بعض رجالات الدين النورماناضطر الملك وليام روفوس لمهادنة الكنيسة الإنكليزية لحاجته إلى دعم رئيس أساقفة كانتربري لانفرانك له، لكنه انقلب عليه بعد أن توطد مركزه وانهى فجأة نفوذه على مؤسسة العرش الإنكليزي.

هوامش البحث:

(١) Edward A. Freeman, A Short History of the Norman Conquest of England, Oxford, 1896, p.129.

(٢) Edward A. Freeman, William The Conqueror William The Conqueror, 1888, p.172.

(٣) Percy Van Dyke Shelly, English and French in England 1066 – 1100, Philadelphia, 1921, p.56.

(٤) Frank Barlow, William Rufus, London, 1983, p.53.

(٥) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.130.

(٦) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.56.

(٧) John Allen Giles, William of Malmesbury's Chronicle of the Kings of England. From the earliest period to the reign of King Stephen, Oxford, 1847, p.327.

(٨) Henry of Huntingdon, Historia Anglorum The History of the English People, Oxford, 1996, p.408 – 409.

(٩) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.57.

(١٠) Edward A. Freeman, A Short History of ..., Op. Cit., p.130.

(١١) M. Gibson, Lanfranc of Bec, Oxford, 1978, p.140.

(١٢) Emma Mason, King Rufus The Life and Murder of William II of England, Glouce–ster, 2012, p.62.

(١٣) C.R. Hart, Hereward the Wake and his Companions in The Danelaw, London, 1992, pp.625 – 648.

(١٤) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.57.

(١٥) Emma Mason, Op. Cit., p.66.

(١٦) A. E. Mckilliam, A chronicle of the archbishops of Canterbury, London, 1913, p.137.

(١٧) A. E. Mckilliam, Op. Cit., p.137.

(١٨) Benjamin Thorpe, A history of England under the Norman kings or from the battle of

Hastings to the accession of the House of Plantagenet to which is prefixed an epitome of the early history of Normandym Oxford, 1857, p.219.

(١٩) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.59.

(٢٠) John Allen Giles, Op. Cit., p.328.

(٢١) Emma Mason, Op. Cit., p.70.

(٢٢) Allen C. Thomas, Op. Cit., p.59.

(٢٣) A. E. Bland, Op. Cit., p.36.

(٢٤) Emma Mason, Op. Cit., p.74.

(٢٥) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.59.

(٢٦) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.130.

(٢٧) Allen C. Thomas, Op. Cit., p.59.

(٢٨) Francis Palgrave, The history of Normandy and of England, Vol. IV, London, 1864, p.29 – 31.

(٢٩) J. Seymour Lucas, Op. Cit., Vol. I, p.123.

(٣٠) Edward A. Freeman, William The ..., p.194.

(٣١) Henry William Carless Davis, Op. Cit., p.74.

(٣٢) J. G. Edgar, Op. Cit., p.204 – 205.

(٣٣) Henry William Carless Davis, Op. Cit., p.74.

(٣٤) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.131.

(٣٥) J. Seymour Lucas, Op. Cit., Vol. I, p.123 ; David Hume, Op. Cit., Vol. I, p.382 – 383.

(٣٦) William Grimshaw, History of England from the first invasion by Julius Cesar to the Year Eighteen Hundred and Fifty prizing every political event worthy of Remembrance a progressive view, Philadelphia, 185, p.41.

(٣٧) عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص١٧٤.

(٣٨) Henry William Carless Davis, England under the Normans and Angevins 1066 –

1272, Vol. II, London, 1915, p.74.

(٣٩) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.131.

(٤٠) Emma Mason, Op. Cit., p.71.

(٤١) Henry of Huntingdon, The chronicle of Henry of Huntingdon. Comprising the history of England, from the invasion of Julius Cæsar to the accession of Henry II. Also, The acts of Stephen, king of England and duke of Normandy, London, 1853, p.222.

(٤٢) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.131.

(٤٣) John Allen Giles, Op. Cit., p.328.

(٤٤) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.61.

(٤٥) John Allen Giles, Op. Cit., p.328 – 330.

(٤٦) Francis Palgrave, Op. Cit., Vol. IV, p.32.

(٤٧) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.132.

(٤٨) M. H. Johnson, Op. Cit., p.182.

(٤٩) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.132.

(٥٠) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.66.

(٥١) M. H. Johnson, Op. Cit., p.182.

(٥٢) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.67.

(٥٣) Francis Palgrave, Op. Cit., Vol. IV, p.35 – 36.

(٥٤) W. H. Margetson, Cassell's History of England from the Roman invasion to the wars of the Roses, Vol. I, London, 1909, p.125.

(٥٥) M. H. Johnson, Op. Cit., p.182.

(٥٦) Francis Palgrave, Op. Cit., Vol. IV, p.38.

(٥٧) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.70.

(٥٨) Edith Thompson, Op. Cit., p.57.

(٥٩) Benjamin Thorpe, Op. Cit., p.222.

(٦٠) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.72.

(٦١) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.134 – 135.

(٦٢) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.72.

(٦٣) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.135.

(٦٤) Benjamin Thorpe, Op. Cit., p.222.

(٦٥) Emma Mason, Op. Cit., p.74.

(٦٦) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.76.

(٦٧) Emma Mason, Op. Cit., p.74.

(٦٨) Benjamin Thorpe, Op. Cit., p.222 – 223.

(٦٩) W. H. Margetson Op. Cit., p.124.

(٧٠) Henry of Huntingdon, The chronicle of Henry ..., p.223.

(٧١) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.79.

(٧٢) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.138.

(٧٣) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.80.

(٧٤) Frank Merry Stenton, William The Conqueror and The Rule of The Normans, London, 1908, p.414.

(٧٥) Quoted in: Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.81.

(٧٦) Edward A. Freeman, A Short History of ..., p.138.

(٧٧) Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.92.

(٧٨) Ibid, p.92 – 93.

(٧٩) Benjamin Thorpe, Op. Cit., p.222.

(٨٠) Quoted in: Percy Van Dyke Shelly, Op. Cit., p.92.

(٨١) Quoted in: W. H. Margetson Op. Cit., p.126.

(٨٢) Benjamin Thorpe, Op. Cit., p.223.